بين هولندة وأندونيسيا

كان الناس إلى وقت قريب إذا ذكروا الاستعمار الأوربى اتجهت أفكارهم نحو الهند وما وسعته أرضها من كنوز ونفائس وأسواق تغص بمئات الملايين من البشر ، وفيها من المنتجات المعدنية والزراعية والصناعية ماجذب أنظار الناس وخلب ألبابهم منذ القدم . فلا غرو أن قامت حركة الاستكشاف فى مستهل القرون الحديثة ووجهتها جميعاً إلى الهند ، وأن يكون كولمب ومن تبعه من الكاشفين الأوربيين على اختلاف جنسياتهم قد عبروا المحيطات وأبحروا فيها غرباً وشرقا باحثين عن أمثل الطرق وأقصرها للوصول إلى الهند . وقد أدى بهم الحنين إلى تلك الأرض السحرية وشدة تلهفهم على التماس سواحلها أن أطلقوا اسم الهند على كثير من الجزر والأراضى التى نزلوا بها دون علم بكنهها . وإنك لترى الآن اسم الهند على الخريطة يطالعك فى جهات عدة منها ؛ ففى أمريكا جزر الهند الغربية ، وفى آسيا جزر الهند الشرقية ، وترى إلى جانب الهند البريطانية السابقة الهند الفرنسية والهند الهولندية ، وفيها جميعاً قد رسخت قدم الاستعمار الأوربى بدرجات متفاوتة منذ القرن السادس عشر إلى وقتنا الحاضر .

وقد كان يجب أن يذكر اسم البرتغاليين إلى جانب الانجليز والهولنديين والفرنسيين الذين استعمروا فى آسيا ؛ فهم أول من خاطر بالسياحة حول إفريقية فى الأزمنة الحديثة، وكان فاسكو دا جاما أول من اخترق المحيط الهندى حول إفريقية إلى ساحل الهند الغربى فى ذلك الوقت . وإلى جهود مستكشفيهم وحكامهم الآخرين فى القرن السادس عشر يرجع تفوق البرتغال البحرى فى المحيط الهندى والبحر الأحمر وانتزاع السيادة فى تلك الأرجاء من أمرائها الوطنيين ومعظمهم من المسلمين ؛ وذلك بعد أن عجز المماليك والبنادقة متحدين عن صد تلك القوة البحرية الجارفة . وقد كان البابا إسكندر السادس حين اشتدت المنافسة بين الأسبان والبرتغاليين فى إبان حركة الاستكشافات ، قد

قضى بأن يكون خط الطول الذى يمر غربى جزيرة أسورة هو الحد الفاصل بين نشاط الأمتين ؛ فما استكشف شرقيه كان للبرتغال وما استكشف غربيه كان لأسبانيا ؛ ولذلك كانت جزر الهند الشرقية من نصيب البرتغال . غير أن أسبانيا ما لبثت أن ضمت البرتغال فى سنة ١٥٨٠ ، واستمر هذا الاتحاد إلى سنة ١٦٤٠ وفى تلك الأثناء كان الهولنديون والانجليز يناصبون أسبانيا العداء ، فاستطاع الهولنديون أن يضعوا أيديهم على جزر الهند الشرقية فى أوائل القرن السابع عشر . ومن ثم عرفت هذه الجزر التى تتألف من جاوة وسومطرة ومادورا وكثير من الجزر الصغيرة الأخرى بالهند الهولندية أو النذرلندية Netherland Indies وهى التى تعرف الآن بأندونيسيا ، أو على الأصح هندونيسيا ، ولها شهرة عالمية فى انتاج المطاط والتبغ والقصدير والسكر والبترول . ويبلغ عدد سكانها أكثر من خمسين مليون نفس ، منهم نحو خمسة وأربعين مليونا فى جاوة وهى أهم هذه الجزر وأعرقها مدنية . والكثرة العظمى من الأهالى مسلمون يعملون فى الزراعة ويتكلمون بلغة الملايو . وبها أقليات من الصينيين والأوربيين لا يزيد عددهم جميعاً على نصف مليون نفس .

ولما دخل الهولنديون البلاد ، وجدوا أنفسهم أمام شعب عريق ، يعتز بمدنيته الجاوية القديمة ، وينعم بوحدة فى الجنس واللغة والدين لا تمزقها الأحقاد ولا تشوبها المنازعات بين الطبقات كما هى الحال فى الهند .

ولما كان الهولنديون فى مقدمة الشعوب الأوربية التى ثارت وكافحت طويلا من أجل حريتها واستقلالها ، فانهم ساروا فى استعمارهم وفق سياسة أكثر استنارة من سياسة البرتغاليين والأسبان الذين أنشأوا محاكم التفتيش فى بلادهم ضد مخالفيهم فى الدين ، واتخذوا من الاستعمار أداة طيعة للتبشير ونشر المذهب الكاثوليكى فى مستعمراتهم بين الوثنيين والمسلمين على السواء .

وقد كانت شؤون هذه الجزر فى أول الأمر بأيدى شركة الهند الهولندية ، فاستغلت الشركة موارد البلاد وطغت فى حكمها أكثر من قرنين حتى تسلمتها الحكومة الهولندية فى منتصف القرن التاسع عشر ؛ فبدأت عهداً جديداً كان اتجاهها فيه أقرب إلى النظام البريطانى الذى كان يهدف إلى الحكم الذاتى منه إلى النظام الفرنسى الذى يعمل عادة لفرنسة أهل مستعمراتهم و إدماجهم فى الدولة الفرنسية . ولم يكن عجيباً أن يتأثر الهولنديون بالنظم البريطانية

فقد حالف الهولنديون الانجليز فى سلمهم وفى حروبهم ، وجمعت بينهم أواصر الجوار والمذهب الدينى ، وألف بين قلوبهم ركوب البحار والتعرض للأخطار . وعلى ذلك وضع الهولنديون خططهم فى استعمار أندونيسيا على أساس ثنائى يتيح للوطنيين أن يرفعوا من مستواهم عند القاعدة حتى يلتقوا بمضى الزمن مع الأوربيين عند قمة الهرم فكان الوطنيون يبدءون تعليمهم فى مدارسهم الابتدائية بلغتهم الوطنية ، حتى إذا وصلوا إلى مرحلة التعليم الثانوى تلقوا

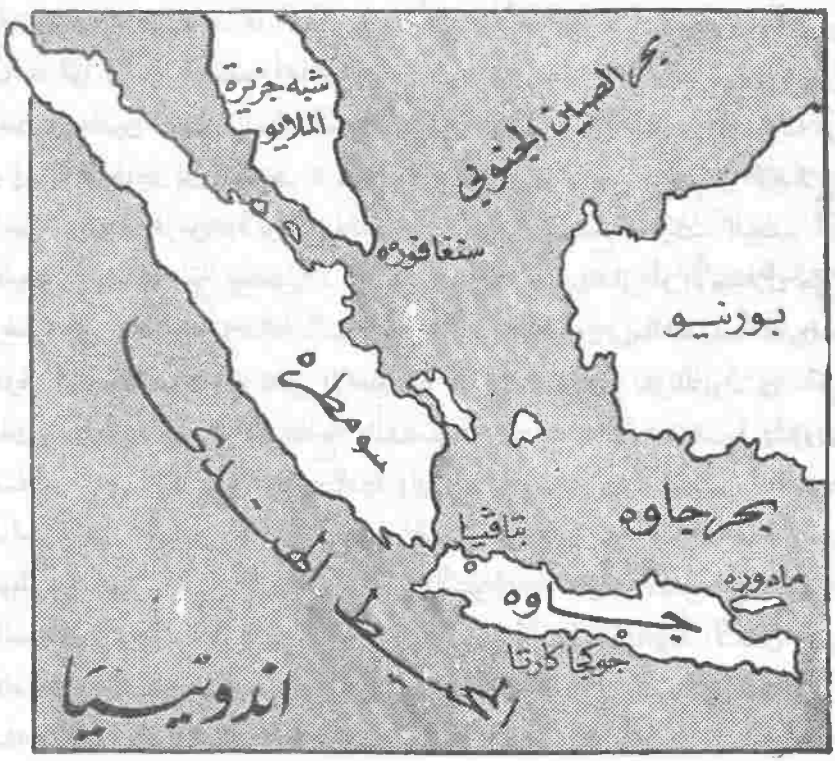

دراسة اللغة الهولندية إلى جانب دروسهم الأخرى . فاذا واصل النابهون منهم دراساتهم الجامعية فى بتافيا عاصمة الهند الهولندية امتزجوا بزملائهم الأوربيين وحصلوا علومهم باللغة الهولندية ، وتساوت فرص التخصص أمامهم جميعاً سواء فى أندونيسيا أو جامعات هولندة . وبمثل هذه الروح سار الهولنديون فى إصلاحاتهم الأخرى ، فألفوا اللجان وأنشأوا المعاهد لمواصلة البحوث العلمية

المستفيضة فى كل ما من شأنه ترقية منتجات البلاد وتحسين أحوالها ودرس حاجاتها فى مختلف الوجوه .

ولاشك فى أن الاندونيسيين قد جنوا من تلك الاصلاحات خيراً كثيراً حتى شاركوا الهولنديين على قدم المساواة فى كثير من الأعمال والوظائف الحكومية . ولكن هذه الاصلاحات جميعها كانت هباء إلى جانب قصور الهولنديين فى الناحية السياسية . والشعوب المغلوبة على أمرها لا تعنى عادة بالتقدم المادى أو الثقافى مثل اهتمامها بالتمتع بحرياتها وحقوقها الوطنية ؛ فهى تعتبر قمع هذه الحقوق مسبة وطنية ، كما أنها تعتبر تحقيقها فرضاً يتعين على الوطنيين الأحرار أن يكافحوا فى سبيله مهما أغدق عليهم المستعمرون من مال وجاه . وعلى قدر اهتمام الوطنيين بهذه الناحية السياسية يكون عادة تلكؤ المستعمرين وترددهم فى إجابة الوطنيين إلى حقوقهم ؛ فهم رغم تظاهرهم باخلاص نياتهم فى الاصلاح لابد منساقون بغريزة الأثرة والدفاع عن النفس إلى قمع الحركات الوطنية أو القومية فى البلاد التى يحكمونها ، وتأخير إعدادها للحكم الذاتى أو الاستقلال حتى يرغموا على ذلك إرغاما ، إما بالثورة من جانب المحكومين وإما انصياعاً للظروف وقوة الأمر الواقع . وقد قضى الانجليز فى حكم الهند وقضى الهولنديون فى حكم أندونيسيا قروناً طويلة استطاع المستعمرون فى أثنائها أن ينهضوا بشؤون المستعمرين من الناحيتين الاقتصادية والثقافية . ولكننا نشاهد الآن أنه حان الوقت لنزول المستعمرين عن سلطات الحكم للوطنيين طوعاً أو كرهاً . وجد الوطنيون سبل الحكم أمامهم غاصة بالأشواك والعثرات ملغومة بالصعاب والشراك . وذلك لأن المستعمرين لم يكن يهمهم أن يأخذوا بيد الأهالى نحو الاضطلاع بالمسئوليات بقدر ما كان يهمهم زراعة القطن وصناعته فى الهند أو استغلال المطاط والبترول فى أندونيسيا .

وقد كانت هولندة تعيّن على أندونيسيا حاكما عاما تضع فى يده جميع السلطات ، وكان يساعده مجلس استشارى خاص لم يكن له شأن يذكر فى الحكم . ولكن ما كادت تنتهى الحرب العالمية الأولى وتهب الحركات الوطنية فى الشرق والغرب بتأثير مبدأ تقرير المصير الذى نادى به الرئيس ولسون قبيل انتهاء الحرب ، حتى نشبت الثورة فى مصر وإرلندة وتركيا والهند ، واضطر الهولنديون إلى إشراك الوطنيين فى الحكم فألفوا مجلساً شعبيا من ٦٠ عضواً كان نصفهم

من الوطنيين ينتخبون له بطريق الانتخاب غير المباشر . وقد قصروا اختصاص المجلس على بحث شؤون الضرائب والجمارك والهجرة داخل البلاد .

على أن هذه البُلغة من الحكم النيابى لم تشبع نهم الوطنيين للحرية والاستقلال : فأخذ القادة الوطنيون ينظمون صفوفهم ويوثقون صلاتهم بقادة الحركات الوطنية فى الهند وبورما والصين واليابان ، وباتوا يترقبون الفرص لتحقيق أمانيهم . وقد سنحت لهم الفرصة أخيراً عند ما قامت الحرب العالمية الثانية . ففى ربيع عام ١٩٤٠ اجتاحت ألمانيا هولندة وغادرت ملكتها وحكومتها البلاد إلى انجلترا . ثم دخلت اليابان الحرب فأعلنت هولندة عليها الحرب فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ومنذ ذلك الوقت دخلت المسألة الأندونيسية بل المسألة الآسيوية فى طور جديد من تاريخها . فقد بدأ عهد تفوق اليابان فى شرق آسيا وجنوبيها واستطاعت بعد انقضاضها على الأسطول الأمريكى فى ميناء بيرل وعلى البارجتين الانجليزيتين الراسيتين فى خليج سيام أن تسيطر على مياه المحيطين الهندى والهادى، وأن تكتسح أمامها وهى فى دفعتها الأولى الجارفة جميع المستعمرات الأوربية والأمريكية فى شرق آسيا وجنوبها ، فاحتلت جزر الفلبين من الولايات المتحدة ، وشبه جزيرة الملايو ، وسنغافورة ، ثم بورما من انجلترا ، وجزر الهند الشرقية من هولندة ، والهند الصينية من فرنسا ، وأصبحت اليابان تهدد الهند نفسها وأستراليا . وليت الأمر كان مقصوراً على ذلك التفوق الحربى الذى استمر أكثر من ثلاث سنوات . بل كان ذلك التفوق الحربى المؤقت حادثا بالغ الأثر فى تاريخ الشعوب الآسيوية التى أذلها المستعمرون واستضعفوها قروناً طويلة . فها هى ذى اليابان الدولة الآسيوية التى انتصرت على روسيا فى أوائل هذا القرن قد حالفتها آلهة النصر أيضاً فى هذه الحرب، فانتصرت على سادة البحر من الانجليز والأمريكان، واستطاعت أن تستولى على سنغافورة تلك القاعدة البريطانية الحصينة الواقعة على خط الاستواء تحرس لبريطانيا طريقها الامبراطورى بين آسيا وأستراليا وبين المحيطين الهندى والهادى . لذلك كان انتصار اليابان بمثابة ناقوس عظيم جلجلت دقاته وسط هضاب آسيا وسهولها ، فأيقظت الشعوب المغلوبة على أمرها الصامتة على مضض ، وملأت قلوب القوم ثقة بأنفسهم ، وأملا فى التخلص نهائيا من سلطان الجنس الابيض . ولم تكن الشعوب التى أخضعها اليابانيون وحرروها مؤقتاً من الاستعمار الأوربى لتهتم كثيراً بأسلوب الحكم اليابانى وانتسابه إلى

الطغيان النازى أو الفاشى . فالشعوب المستعمرة أو المحكومة لا تستسيغ فى كفاحها أن تبحث فلسفة الحكم وأنواعه، وإنما يهمها أمر واحد تؤثره على كل شئ آخر ، ذلك هو الخلاص من الحكم الأجنبى . وكان اليابانيون على علم بشعور الأهالى، فاستغلوه ضد الأوربيين وضد الجنس الأبيض عامة ، وجعلوا فى أثناء احتلالهم لتلك البلاد يدربون أهلها على فنون الحرب ، فألفوا منهم الجيوش والعصابات وسلحوهم بمختلف الأسلحة . حتى إذا دنت ساعة النصر للحلفاء وأحس اليابانيون باقتراب أجل احتلالهم لتلك البلاد ورّثوا الوطنيين سلاحهم ومؤنتهم وعتادهم . وقام الوطنيون من كل صوب فى الهند وبورما وأندونيسيا والصين الهندى يتّحدون ويتحفزون لقتال الحلفاء الذين قد تحدثهم أنفسهم باستعادة سيطرتهم على مستعمراتهم القديمة .

وكانت الحركة الوطنية فى أندونيسيا قد لقيت قبل الحرب الأخيرة عنتاً من جانب الهولنديين ؛ إذ اضطهدوا زعيمها الدكتور أحمد سوكرنو وسجنوه أربع سنوات ثم أطلقوا سراحه سنة ١٩٣١ لينفوه إلى جزيرة سومطرة . ولكن حكومة هولندة بعد أن شردها الألمان من بلادها وانقطعت صلاتها بأملاكها فى عرض المحيط عادت تحاول أن تجتذب إليها قلوب أهل مستعمراتها ، فأعلنت ملكة هولندة فى سنة ١٩٤٢ من منفاها بانجلترا اعتزام هولندة بعد أن يتم تحريرها على سن دستور اتحادى يجمع بين هولندة وأملاكها فى الشرق والغرب ، ويتمتع فيه الجميع بالحكم الذاتى وبنفس الحريات العامة التى يتمتع بها الهولنديون أنفسهم .

ولكن الزعيم سوكرنو لم ينتظر حتى يعود الهولنديون إلى قواعدهم، ورأى أن يضعهم أمام الأمر الواقع ، فاغتنم الفرصة عقب خروج اليابانين وأعلن فى أغسطس ١٩٤٥ تكوين جمهورية أندونيسيا برياسته ، واختار لرياسة وزارته صديقة الدكتور شاهرير وهو محام شاب درس القانون فى جامعة ليدن بهولندة وقد آثر السجن فى أثناء الاحتلال على التعاون مع اليابانين كما فعل سوكرنو . ولكنه مع ذلك لم يتردد بعد ارتحال اليابانيين فى وضع يده فى يد سوكرنو ، وتعاون الاثنان على ضم الصفوف ومقاومة القوات التى نظمها الهولنديون لقمع الثورة . وكانت هولندة تميل أول الأمر إلى الاستنجاد بالولايات المتحدة ، التى أصبح لقائدها الجنرال ماك أرثر مكانة فائقة فى آسيا على أثر استسلام اليابان.

ولكن الحكومة الانجليزية عارضت فى تدخل الولايات المتحدة ، وقالت إن أندونيسيا داخلة فى منطقة نفوذها . وعلى ذلك تقدمت انجلترا بقواتها لمساعدة حليفتها هولندة فى قمع الثورة بأندونيسيا ، بل إنها لم تتورع حتى عن الاستعانة ببقايا جيش الاحتلال اليابانى . ولكن انجلترا لم تلبث أن كفت عن مساعدة هولندة بعد ان اثارت روسيا هذا الموضوع أمام مجلس الامن سنة ١٩٤٦ ، وكانت الحكومة الهولندية قد رتبت شؤونها فى بلادها ، فانفردت بالعمل أمام الأندونيسيين ، وعينت الدكتور فان موك Van Mook حاكما عاما للاقليم وقد فوضته فى معالجة الحالة وفق ما يراه . وفان موك من مواليد الجزر الهولندية الشرقية ومن أنصار فكرة التعاون مع الوطنيين ، فاجتمع مع زعماء الأندونيسيين واتفق الطرفان فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ على أن تعترف حكومة هولندة بجمهورية أندونيسيا فى جاوة وسومطرة ومادورا برياسة الزعيم سوكرنو ، ومقابل ذلك تعترف أندونيسيا بسيادة التاج الهولندى على الاتحاد الأندونيسى الهولندى الذى يشمل أندونيسيا وغيرها من الجزر التى لا تريد الانضواء تحت لواء الجمهورية ، وأن يترك للاتحاد البت فى مسائل الدفاع والعلاقات الخارجية والتعاون الثقافى . ويعرف هذا الاتفاق بمعاهدة « لنجاوجاتى » وقد وقع عليها السيد شاهرير رئيس الوزارة إذ ذاك ، ووافق عليها البرلمان الهولندى . ولكن يبدو أن الرئيس سوكرنو وبعض العناصر المتطرفة لم يرتاحوا إلى شروط الاتفاق ، فاستقال شاهرير ولكنه بقى إلى جانب الرئيس كمستشار له . وكأنما أرادت هولندة أن تنتهز الفرصة فتلغى الاتفاق من أساسه وتعيد البلاد إلى سلطانها القديم ، فجهزت قوة جديدة مالبثت أن أغارت على أماكن الوطنيين فى يونيه الماضى ، فأثارت بعدوانها سخط العالم أجمع ما عدا الدول التى يهمها بقاء الاستعمار كبريطانيا وفرنسا وبلجيكا . وارتفع صوت الوطنيين من جوكجاكارتا عاصمة الجمهورية الأندونيسية ، وحأروا بالشكوى من الطغيان الهولندى . وكان مندوب الجمهورية قد وصل إلى مصر ، وعقد مع الحكومة المصرية فى يونيه الماضى معاهدة الصداقة ، فجاءته الأوامر بأن يرحل إلى أمريكا صحبة السيد شاهرير للاستنجاد بمجلس الأمن وسائر الدول . وكانت هولندة تدعى أن القوات الهولندية التى تحارب فى اندونيسيا ، ما هى إلا قوة بوليسية تحاول استتباب الأمن وحفظ النظام فى البلاد ، وأن أندونيسيا لا تزال قانونياً جزءاً من أملاك هولندة

وليس لها من الاستقلال والسيادة ما يسوّغ تدخل هيئة الأمم بشأنها . ولكن مجلس الأمن لم يسعه أن يتغاضى عن الحقيقة الواقعة ، وهى أن هناك حرباً تدور رحاها بين شعبين فى الشرق الأقصى ، وأن الواجب يدعو المجلس إلى التدخل لوقف الحرب ، فأذعنت هولندة ، وبحث المجلس فى القضية على عجل مستمعاً لشكوى أندونيسيا . وقد أصدر قراره فى أغسطس الماضى بمطالبة الفريقين بوقف القتال . ووصلت هذه الأوامر رسميا إلى الجهات المختصة ، ولكن الحالة عادت أسوأ مما كانت عليه بسبب حرب العصابات التى استفحل أمرها فى أندونيسيا كما استشرى خطرها فى جهات أخرى من العالم فى هذه الأيام (اليونان وفلسطين و كشمير) . وأخيراً تألفت لجنة ودية ثلاثية من بلجيكا عن هولندة وأستراليا عن أندونيسيا ومن الولايات المتحدة ، وقد قصدت اللجنة إلى اندونيسيا ، وهى الآن تحاول حسم الخلاف القائم فى هذه الأرجاء ووضع حد للقتال القائم فيها منذ ثلاث سنوات .

ويبدو أن الأمل كبير فى أن تعترف هولندة بحق الأندونيسيين فى أن يحيوا الحياة الحرة المستقلة التى يرتضونها لأنفسهم . فقد توالت النذر أخيراً بأن نجم الاستعمار قد آذن بالأفول . وها هى ذى الولايات المتحدة قد نزلت مختارة عن سلطانها فى الفلبين . بل ها هى ذى بريطانيا سيدة الاستعمار قد حررت من سيطرتها بورما والهند وهى التى كانت إلى وقت قريب قبلة الاستعمار وألمع جوهرة فى تاجه . وبذلك قدمت حكومة العمال فى انجلترا الدليل واضحاً على نهاية سياسة الاستعمار القديمة ، واقتراب عهد جديد لا تحكم فيه الشعوب ضد إرادتها ، ولاتقوم فيه قائمة لشعب يطغى ويبغى السيطرة على غيره من الشعوب .

محمد رفعت